الافتتاحية

عشرون إصدارًا تعني عشر سنوات من عمر المجلة؛ أي أن وليدنا كبر ونما وترعرع، ودخل مرحلة الاعتراف به كوعاء علمي، يحمل بين دفتيه رسائل علمية من المشرق إلى المغرب وبالعكس، يشارك فيه علماء يعرّفون بآثار المشرق، وآخرون يعرّفون بآثار المغرب، وإن كان الآثاريون المغاربه يقلون من النشر في أوعية النشر الصادرة في المشرق العربي، الذي ما يزال ينتظر مزيدا من التفاعل والمشاركة العلمية حول آثار بلدانهم، ولعل السبب في ذلك هو حاجز اللغة؛ فعلماؤنا في المغرب تعلموا وكتبوا بالفرنسية، ويجدون صعوبة في البحث بالعربية أو الإنجليزية، وحتى لو حاولوا الكتابة بالعربية؛ فإن المصطلح العلمي يقف حائلاً دون التعبير السليم، ومن ثم لا يستطيعون المشاركة بلغة ارتضتها «أدوماتو» للمشاركة في حومة البحث فيها.

ضمت «أدوماتو» بين دفتيها خلال العشر سنوات نحو مائة وخمسين بحثًا محكّمًا تشمل أبحاثًا في عصور ما قبل التاريخ، وأبحاثًا في عصور ما قبل الإسلام، وأبحاثًا في النقوش القديمة، وأبحاثًا في العصور الإسلامية، وأبحاثًا أخرى، تبحث في الأصول العامة، إضافة إلى عرض الكتب وأخبار المؤتمرات واللقاءات العلمية، مما لم تدخل ضمن الإحصاء للبحوث العلمية.

وخلال عشر سنوات استطاعت «أدوماتو» أن تضمن لها قراء في جميع أنحاء العالم، وتصبح ضمن الأوعية العالمية المرموقة، فتنادى لها الباحثون من هنا وهناك، وما ذلك إلا لأن هيئة التحرير التزمت بالمقاييس العلمية الرصينة، ما جعلها تعتذر في كثير من الأحيان لباحثين لأن بعضهم يرفض التحكيم، أو لا يوافق على تعديل مادة بحثه حسب توصيات لجان التحكيم، وآخرون يعتذر لهم قبل اختيار محكمين لأبحاثهم. إن المصداقية في العمل قمينة بأن تصعد به إلى مرتبة قريبة من الكمال، وهذا ما نتوخاه.

لقد أثلج صدورنا إصدار مجلس جامعة الملك سعود بالمملكة العربية السعوية لائحة التميز البحثي وجودة النشر بالجامعة، واعتماد أدوماتو واحدة من المجلات العلمية المحكّمة، المقبولة لديه لغايات نشر الأبحاث، وتحفيز المجلس لأعضاء هيئة التدريس في الجامعة بنشر أبحاثهم العلمية فيها.

* * *

قدمت الندوة الأولى، التي كانت بعنوان: «المدينة في الوطن العربي» ثلاثة وعشرين بحثًا آثاريًا أصيلاً للمكتبة العربية، للقارئ العربي وغير العربي، منها خمسة عشر بحثًا باللغة العربية، وثمانية أبحاث باللغة الإنجليزية؛ وهي أبحاث تناولت تاريخ المدن العربية، نشأتها وتطورها منذ عصور ما قبل التاريخ وفجره، ثم العصور التاريخية حتى العصور الإسلامية.

وقد ناقشت أبحاث الندوة نشأة المدينة في الوطن العربي وتطورها وتخطيطها، والتطور الحضاري الذي طرأ على مجتمعات ما قبل التاريخ، وتحولّها من أساليب الصيد والجمع والالتقاط، في العصر الحجري القديم، إلى ممارسة الزراعة واستئناس الحيوانات وظهور القرى المبكرة، في العصر الحجري الحديث؛ ما مهّد لظهور المدن في بداية العصور التاريخية. وهناك العديد من المواقع الأثرية التي عُثر فيها على شواهد أثرية، تؤكد تحوّل القرى الزراعية إلى مدن، وذلك خلال الألف الرابع قبل الميلاد؛ وفي الألف الثالث قبل الميلاد ظهرت في الوطن العربي مدن، تضم مختلف المرافق، من معابد وقصور وأحياء سكنية ومنشآت مائية محاطة بأسوار تتخذ لها أبراجاً دفاعية.

ثم توالى ظهور المدن والعواصم في مختلف أنحاء الوطن العربي، بأقسامه المختلفة: الجزيرة العربية، وبلاد الرافدين، وبلاد الشام، ووادي النيل، والمغرب العربي.

وتطرقت الندوة إلى عدد من هذه المدن في عصور ما قبل الإسلام، مثل : تيماء، ومأرب، والبتراء، وخربة الذريح، والحجر، وقرية «الفاو»، والحضر، وتدمر، وغزة. وبعد أن أشرقت أرض العرب بنور الإسلام، ارتكزت المدن العربية التي نشأت بعد الإسلام على هذا الإرث الحضاري الكبير. ومن المدن الإسلامية التي تناولتها الندوة : جلفار على ساحل الخليج العربي، وفيد التي نشأت على طريق الحاج القادم من الكوفة إلى مكة المكرمة، وميناءي راية والكيلاني في طور سيناء اللذان شكّلا حلقة اتصال بين الجزيرة العربية ومصر والمغرب العربي، ومدينتي بجاية وهنين في المغرب الأوسط (الجزائر).

* * *

لقد ظهرت نتائج الندوة الأولى في كتاب «المدينة في الوطن العربي في ضوء الاكتشافات الأثارية: النشأة والتطور» في أبهى حلّه، وتلقينا ثناءً عاطراً على المجهود الذي بُذل في سبيل ظهور الأبحاث المختارة بطريقة علمية ترقى إلى ما يماثلها من الندوات العلمية المحددة المعالم وواضحة الهدف؛ وقد شجَّعنا ذلك على التفكير في إقامة ندوة ثانية لها علاقة بالندوة الأولى، ونظراً لأن الندوة السابقة كان هدفها «المدينة نشأة وتطوراً»؛ فإن تحت هذا الإطار مظلة واسعة، وكان أهم عامل في المدينة هو الإنسان، والبيئة التي عاش

فيها وطوّر مجتمعه حسب الظروف التي تحيط به؛ كل ذلك في ضوء التنقيبات الأثرية. والإنسان وبيئته ليس هو ذلك الذي عاش في العصور السحيقة قبل عصر الكتابة، ولكن ذلك يشمل فِكرَه، وبناءَه وسلوكَه؛ فنحن لا نُعنى بالبيئة فقط، بل نتحدث عن الإنسان ونشاطاته المختلفة، من كتابة، وفنون، وعمارة، ومياه، وعبادة، كل ذلك في كنف البيئة التي عاش فيها.

ومن هنا، كانت محاور الندوة تشمل: الإنسان والبيئة النهرية وأوديتها، سواء كانت البيئة صحراوية أو جبلية أو ساحلية أو جزرية أو استوائية؛ وعليه كان الهدف من الندوة إبراز العلاقة بين الإنسان وبيئته، والتعرف على المؤثرات البيئية التي أسهمت في التأثير على المجتمعات البشرية عبر العصور، من خلال استعراض أمثلة من مواقع أثرية، وإتاحة الفرصة لالتقاء المختصين في الدراسات الآثارية والبيئية، وطرح تصورات بحثية مستقبلية. وعلى بركة الله، تسير القافلة مضمّخة بعلم نافع، يفخر به الوطن العربي، وتنعش به الأذهان، وتخرج به الأبحاث عن مستوى الرتابة إلى مستويات علمية وأفاق أرحب.

* * *

إذا كان الأثاريون يحزنون ويتأثرون بإزالة أثر، عُنوة أو لظروف خاصة، فإنه حري بنا أن نذرف الدمع على عالم من علماء الآثار الإسلامية، هو العالم الجليل، الأستاذ الدكتور ناصر بن علي الحارثي، الذي كان له الفضل والريادة في الكشف عن آثار مكة المكرمة والطائف وما حولهما، في مؤلفات يتلقفها الباحثون بشغف ونهم، ذلك لأنه لا يكتفي بالتعريف بالأثر، ولكنه يحاول ما استطاع أن يشرح تاريخه وأهميته، وما يمكن أن يضيفه من معارف إلى معارفنا.

لقد تصفح الحارثي جبال مكة وأوديتها، وعرفات وما حولها، وكشف ما غمض من أسرارها، حتى مواد البناء وطوبها؛ تفرغ لها وكتب عنها وعن عمارتها، ورواشينها وطرز البناء في المدينتين، فكفانا مؤونة البحث عن المدينتين ثقافة وآثاراً.

كان، رحمة الله، كريماً في مَحْتَدِه، كريماً في سلوكه؛ لا يصدر كتاباً إلا ويرسل نسخاً منه إلى جميع أصدقائه ومحبيه، حتى المعاجم منها - على ضخامتها - فإنه لم يكن يحرم الآخرين من الإطلاع عليها. وكثيراً ما يكتب عليها أنها على نفقة أحد المتبرعين، وما أظنه إلا هو ذلك المتبرع. ولقد صحبته في رحلة من الطائف إلى بني مالك إلى ديار ثقيف إلى.. إلى.. فكانت رحلة علم حقيقي، من أثر إلى أثر، ومن قبيلة إلى أخرى، ومن بيت كرم إلى مثله؛ وعدنا نحمل بين جنباتنا علماً كثيراً ومعارف أكثر، ومحبةً لا تُنسى، ما حيينا. فغفر الله لزميلنا ناصر، فقد كانت وفاته فاجعة للجميع، وسوف يبقى ناصر عَلَمَاً من أعلام الآثاريين، يُسجل اسمه في سجل الخالدين. جعله الله في جنات النعيم، في الفردوس الأعلى مع النبيين والصديقين وحسن أولئك رفيقا.

رئيس هيئة التحرير